## محنة ضمير

# سعيد بن عامر

رضي الله عنه

ربما لا يكون هناك وسيلة للرجوع إلا وخز الضمير!

**المكان:** منطقة التنعيم بالجزيرة العربية.. خارج مكة.

**الزمان:** السنة الرابعة للهجرة .

**الحدث:** إعدام الصحابي خبيب بن عدي.

آلاف من العيون المترقبة تنظر إلى الصحابي خبيب بن عدي، وقد صلبته قريش على نخلة بعد أسره.

آلاف البشر ينتظرون أمر أبي سفيان بقتل خبيب، أحد رسل رسول الله ﷺ إلى إحدى القبائل المحيطة بالمدينة ليتعلموا الإسلام، فأسروه وباعوه لقريش..

الجميع ينظرون وينتظرون كلمة الغدر والخيانة...

كان الموقف مهيبا شديد الرهبة.. يهز أقسى القلوب وأكثرها عداء للإسلام.

وبنظرة جمعت بين الشفقة والانبهار، كان ينظر شاب في الرابعة والعشرين من عمره إلى خبيب ابن عدي، فلا يتمالك نفسه أمام هذا الإيمان العجيب والصمود الأسطوري..

سعيد بن عامر الجمحي..

من بين آلاف البشر.. كان سعيد بن عامر يهتز بقوة وبعنف كما لم يهتز في حياته من قبل، وكيف لا وهو يرى أبا سفيان نفسه رأس الكفر-قبل أن يسلم- والذي ظل يحارب الإسلام سبعة عشر عاما حتى هذه اللحظة، يهتز أمام صمود خبيب؟!.

لقد رأى سعيد -الفتى الصغير- بطولة نادرة كان من المستحيل أن يتمالك مشاعره وخياله الخصب أمامها.

كان حلم أبي سفيان أن ينطق خبيب بكلمة توسل أو تذلل، إلا أن طلب خبيب الوحيد كان على غير المتوقع.

فلقد نظر خبيب بن عدي إليه وإلى عقبة بن الحارث الذي حبسه حتى موعد إعدامه، قائلا في عزة :

- هل تسمحان لي بصلاة ركعتين ؟

وما إن انتهى خبيب من صلاته، حتى أخذ ينظر إلى زعماء قريش في تحد قائلا :

- كنت أتمنى لو ازددت صلاة، لولا أن تحسبوا أن بي جزعا من الموت !!

ثم رفع يديه إلى السماء ليدعو الله بكل ما تملكه نفسه من خشوع قائلا:

- اللهم أحصهم عددا.. واقتلهم بددا.

قالها خبيب بكل قوة وصدق، أدخلت الرعب في كل الجمهور الواقف، حتى أنهم انبطحوا على

الأرض خوفا من أن تصيبهم دعوة خبيب !!

ونظر أبو سفيان إلى المشهد فأصابه الغيظ، فأشار إلى رجاله أن يصلبوه قبل أن يعطي للرماة إشارة البدء.

كانت السهام مصوبة إلى رجل ضعيف مصلوب على نخلة أمام رجال لا تجد في عيونهم إلا الانتقام والكراهية، غل شديد ورغبة عنيفة في الانتقام من الرسول ﷺ في شخص خبيب، ويأمر أبو سفيان الرماة فتنطلق السهام قوية إلى جسد خبيب، فتسيل الدماء منهمرة منه، وتتطاير قطع اللحم من أطرافه.

يرى سعيد «خبيبا » وهو يتألم فيتوقع أن يستغيث أو ينهار..

كان خبيب يتألم ألما مكتوما، يظن معه أبو سفيان أنه يريد أن يتخلص من هذا الألم مهما كان الثمن، فيجري إليه وهو ينظر إليه بمكر قائلا:

- يا خبيب.. أتحب أن محمدا مكانك، وأنت سليم معافى؟

وبكل اللهفة والشوق ينتظر الجميع الإجابة، ويفتح سعيد بن عامر عينيه وأذنيه وهو يرى خبيبا ينظر إلى أبي سفيان بنظرة قوية حادة ، ويقول بلهجة قوية شامخة:

- والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله ﷺ بشوكة!

يا لله.. ما كل هذا الحب لرسول الله ﷺ ؟! من أين أتى خبيب بكل هذا الإيمان الذي يجعله بطلا لا تقدر على هزيمته قريش كلها ؟!

ربما كان سعيد بن عامر يسأل نفسه..

فإن ما رآه جعل الدنيا تدور برأسه، ولم يكن يملك -مهما كان عداؤه للإسلام- إلا أن يتملكه إعجاب وانبهار واحترام لا مثيل لهم ..

تماما كما شعر أبو سفيان بعد إجابة خبيب..

كانت كلمات خبيب قوية كسهم أطلقه على أبي سفيان، الذي طأطأ رأسه إجلالا واحتراما لملحمة صمود وثبات على المبدأ ، ستصبح دوما علامة في التاريخ لكل المناضلين.

وأراد أبو سفيان بعدها أن ينهي المشهد، قبل أن يشعر الجميع بهزيمته أمام فتى أعزل مصلوب.

وجاء مشهد النهاية...

ليشير أبو سفيان إلى عقبة بن الحارث ليطلق السهم الأخير.

واقشعر جسد سعيد بن عامر بشدة، بعد أن رشق سهم الغدر في قلب الفتى الطاهر، وصرخ بعدها صرخة انخلعت لها قلوب الجميع.

مات خبيب..

وانفض الجمع.. وذهب الجميع إلى بيوتهم يتحدثون ويحكون..

ومع الوقت.. انتهت الحكاية كحكايات قديمة انتهت وذهب أثرها مع كل أهل مكة..

إلا واحدا..

ظل المشهد يتراءى أمام عينيه أينما ذهب..

وظلت الكلمات ترن في أذنيه صباح مساء..

وظلت ملامح الصمود والعزيمة والراحة النفسية في عيني خبيب لا تفارق خياله..

سعيد بن عامر..

أيام وأيام.. والموقف لا يمر.. ولا يريد أن يمر.

في الصباح.. تهجم الأفكار عليه فلا تدع لديه فرصة للتركيز في شيء.

وفي المساء.. ينقض عليه المشهد في حلمه فيستيقظ مفزوعا..

كان سعيد بن عامر رقيقا مرهف الحس.. لم يتحمل قلبه الرقيق ذلك الظلم الفادح الذي رآه..

لم تتحمل مشاعره ذلك القهر.. وتلك الرغبة الجامحة في الانتقام من رجل ضعيف، كل ذنبه أنه اعتنق دينا يدعو إلى الفضيلة والخلق !

وفي يوم..انهارت أعصاب الفتى الصغير سعيد بن عامر..فوجد جسده يرتعد فجأة عدة ثوان، حتى أصيب بصرع خفيف جعله يغشى عليه لدقائق..

بعدها أفاق سعيد.. ليس من نوبة الصرع التي انتابته، ولكن من غيبوبة ظل يعاني منها طيلة ثلاث سنوات كاملة بعد مقتل خبيب.

تابع سعيد فكرة الصمود والحب لرسول الله ﷺ بعد مقتل خبيب بعام في غزوة الأحزاب، وهو يرى الآلاف من قبائل قريش وغطفان وبنى قريظة وغيرهم، يحاصرون ثلاثة ألاف مسلم لمدة أربعة وعشرين يوما، والمسلمون مصرون على موقفهم ومبدئهم.

نفس إصرار خبيب بن عدي على موقفه ومبدأه.

وكما انهزم أبو سفيان أمام خبيب.. ينهزم أبو سفيان مرة أخرى ومعه عشرة آلاف من أنحاء الجزيرة العربية أمام المسلمين.

مرة أخرى ينتصر المسلمون.. ويزداد سعيد انبهارا بهذا الثبات الأسطوري على المبدأ، مهما كانت التضحيات.

وفي السنة السادسة يأتي المسلمون إلى مكة ليعقدوا صلح الحديبية مع قريش.

لقد بدأ المسلمون يحصدون ثمرة تضحياتهم.

وبدأت الصورة تتلألأ أمام سعيد .

وبدأ سعيد يشق طريقه..

إلى الحقيقة..

وإلى المدينة..حيث رسول الله ﷺ..

* * *

لقد أسلم سعيد بن عامر..

وبمجرد أن يسلم سعيد يقرر الرسول ﷺ غزو خيبر، ويبدأ سعيد بن عامر ذوالسبعة والعشرين عاما مع الرسول ﷺ وإخوانه الصحابة رحلة نشر رسالة الإسلام والدفاع عنها..

يشارك سعيد في انتصار المسلمين على حصون اليهود في خيبر في السنة السابعة من الهجرة.. وبعدها بعام يزور بلده مكة معتمرا لمدة ثلاثة أيام، وفي السنة الثامنة يرى كيف كانت معجزة الإيمان في مؤتة، كيف جعلت مائتى ألف محارب في أعظم جيش في العالم – جيش الروم - لا يقوى على هزيمة ثلاثة آلاف مقاتل مسلم لا يملكون إلا سيوفهم وإيمانهم طوال ستة أيام كاملة ، وفي نفس العام.. يفتح الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين مكة، فيدخلونها فاتحين منتصرين متواضعين.

تمر الأيام وانتصارات المسلمين تتوالى.. والأحلام تتحقق.. وشخصية سعيد بن عامر ترصد وتحلل وتنضج أكثر وأكثر..

لم يتخلف سعيد عن غزوة أو معركة، فلقد كان يريد أن يبحث عن البطولة بعد أن رآها.

كان سعيد شابا فقيرا بسيطا في ملبسه، ليس في مظهره ما يلفت النظر، لكن موهبة سعيد كانت في تأمل ما حوله، ورصد ما يدور خلال رحلته القصيرة مع الرسول ﷺ والمسلمين.

أحب سعيد بطولة خبيب، وتأثر بزهد الرسول ﷺ وكرمه، وتعجب من إنفاق صهيب، وذهل من صلابة عمر، واندهش من إيمان أبي بكر، وصدم بوفاة الرسول ﷺ.

الآن..في سن الواحدة والثلاثين .. يعيش سعيد بدون الرسول ﷺ.

مازال سعيد صغيرا..أليس كذلك ؟ لكنه تعلم الكثير والكثير..

كان سعيد كثير التأمل ، يجيد رؤية الأحداث واستنباط الفوائد..

لكنه كان هادئا بصورة لم تدع لأحد فرصة أن يكتشف مواهبه وقدراته..

الحكمة..العدل. الزهد..القيادة..

إلا أن خبيرا بالنفوس.. كان يرى مواهب سعيد بن عامر، وكان يدخرها لوقت عصيب ومهمة جليلة ..

أما الخبير.. فكان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين.

وأما الموقف العصيب، فكان قرار عمر بن الخطاب بالبحث عن شخص يتولى إحدى ولايات الشام..

فمن يكون؟

من الشخص القادر على رئاسة ولاية كبير في بلد كبير كالشام؟ من هى الشخصية التى تستطيع إدارة بلد تجاري بعدل وحزم دون أن تتأثر بنفوذ تجاره ورجال أعماله، ودون أن تستسلم لإغراء المادة وفتنة العيش الرغيد ؟

لأول وهلة.. يتوقع أن يقع اختيار عمر على رجل غنى، تعامل مع المال وعاش عيشة الراحة والرفاهية، أو تاجر كبير، يفهم شخصية التجار ويجيد التعامل معهم، أو على الأقل رجل كبير في السن، يهابه الكبير والصغير بعد أن نهل من خبرات السنين.

لكن المفاجأة.. أن عمرا اختار شابا فقيرا صغيرا بسيطا...

مفاجأة.. فاجأت صاحبها نفسه وأزعجته.. بل أرعبته !!

سعيد بن عامر الجمحي..

« لا تفتني يا أمير المؤمنين ».

نطق بها سعيد بن عامر في انزعاج شديد، مصحوبا بتوسل واضح لعمر بن الخطاب، الذي كان قد أخبره بالمهمة منذ ثوان، والذي صاح في غضب قائلا:

- والله لا أدعك.. أتضعون أمانتكم وخلافتكم في عنقي.. ثم تتركوني؟!

كان موقف عدد من الصحابة بقرار ترك المدينة والعودة إلى بلادهم، أمرا مزعجا لعمر بن الخطاب، كاد يسبب له أزمة في إدارة شؤون الحكم بالصورة التى ترضيه، وكانت الطريقة التى تحدث بها عمر، كفيلة بأن يشعر سعيد بن عامر بحجم المشكلة، ومدى احتياج عمر إليه، فما لبث أن هدأ واقتنع.

ووافق ..

وبدأ سعيد الشاب الفقير البسيط، يعد العدة مع زوجته للسفر ، بعد أن أعطاه عمر مبلغا من المال نظير تكاليف رحلته، ونظير إقامته لفترة في مقره الجديد، لتسلم مقاليد الحكم في الشام.

من المتصور أن يكون المبلغ الذي أعطاه عمر لسعيد مبلغا كبيرا، على الأقل بالنسبة لسعيد وزوجته الصالحة، بل ربما يكون هوأكبر مبلغ قد قبضت يد سعيد عليه في حياته..

ومن المتصور أيضا.. أن سعيد بن عامر، قد بدأ يعد عدة أخرى معه غير عدة السفر..

عدة الزهد..

بدأ سعيد بن عامر يعد نفسه قبل أن يواجه الموقف، فبدأ يدرب نفسه تدريبا عمليا على الترفع

عن الترف والاستغناء عما سيقابله في أرض غريبة، هو حاكمها.. يأمر فيها وينهى ما شاء له..

كيف يكون شعور شاب فقير وزوجته.. ذاقا من الفقر مذاقا.. فإذا بهما فجأة يجدان أنفسهما وقد اعتليا الأغنياء المرفهين المنعمين..

ألم يكن من المتوقع أن يعقدا العزم على تغيير حياتهما ومستواهما الاجتماعي ليتناسب على الأقل مع الوضع الجديد؟

أليس من المتوقع أن يعطيا لأنفسهما مهلة – ولو لفترة– لكي يتنفسا هواء جديدا ويعيشا حياة جديدة ؟

أليس من المتوقع من شابين صغيرين في بداية حياتهما الزوجية أن يحلما ذلك الحلم البسيط ؟

وربما حلم سعيد.. ولكنه لم يدع لنفسه فرصة أن يستغرق في الحلم.

أما زوجته.. فقد حلمت حلما بسيطا متواضعا..

أن تشترى بعض الملابس الجديدة وبعض الأثاث اللائق.. ثم تدخر ما تبقى لهما بعد ذلك.

حلم بسيط ومتواضع ومشروع..أليس كذلك ؟

لكن « سعيدا » كان خائفا من هجوم المال الذي لا يعرفه عليه، ولم يكن خبيرا بمناوراته الذكية والخفية، ففضل الابتعاد عن منطقة المناورات تماما، وابتسم لزوجته في هدوء وحنان قائلا:

– ألا أدلك على خير من هذا؟ نحن في بلاد تجارتها رابحة، وسوقها رائجة، فلنعط المال لمن يتاجر لنا فيه وينميه.

قالت الزوجة في قلق:

– وإن خسرت تجارته؟

إلا أن سعيدا طمأنها قائلا:

– سأجعل ضمانا عليه.

تابعت الزوجة في راحة وتفاؤل وهي تقول:

– فنعم إذن.

وخرج سعيد بن عامر يشتري ما يحتاجه من ضروريات حياته المتقشفة، أما الباقي.. فقد تاجر به التجارة الرابحة التي وعد بها زوجته..

فلقد وزع ما تبقى له من مال على الفقراء والمحتاجين !!

وتمر الأيام.. وتسأله زوجته بين الحين والآخر عما آلت إليه التجارة، وكيف أصبح نصيبه من الأرباح.. فيبتسم سعيد لها يطمئنها في فرحة:

– إنها تجارة موفقة.. وإن الأرباح تنمو وتزيد!!

وفي إحدى المرات.. كان أحد أقارب سعيد في ضيافته في بيته، وفي سياق الحديث وجدت زوجته فرصة للسؤال عن أرباح التجارة التي لم تر منها شيئا حتى الآن..

إلا أن ابتسامة قريبه الذي كان على علم بالأمر، ألقت بالشك في قلبها، مما دفعها للإلحاح في السؤال مرة أخرى لمعرفة الحقيقة، وقد أصابها الوجوم بعد أن أفصح القريب قائلا:

- لقد تصدق زوجك بماله من ذلك اليوم البعيد.

أجهشت الزوجة بالبكاء وأصيبت بخيبة الأمل، فلا هي اشترت ما تريد ولا بقي المال..

نظر سعيد إلى زوجته بتأثر، ورق قلبه الرقيق أمام دموعها، إلا أنه ما لبث أن تماسك بعد أن أخذ يتذكر أصحابه في الجنة، فمد بصره وكأنه ينظر إليهم وهو يقول في تأمل:

- لقد كان لي أصحاب سبقوني إلى الله.. وما أحب أن أنحرف عن طريقهم ولو كانت لي الدنيا بما فيها.

ثم اتجه ببصره إلى زوجته وأمسك ذراعيها وهو يقول لها في حدة مغلفة بالعطف :

- تعلمين أن في الجنة من الحور العين والخيرات الحسان، ما لو أطلت واحدة منهن على الأرض لأضاءتها جميعا، ولقهر نورها نور الشمس والقمر معا.. فلأن أضحي بك من أجلهن، أحرى وأولى من أن أضحي بهن من أجلك.

كانت الرسالة قوية ومعبرة وحاسمة ومفهومة...

أدركت الزوجة بعدها أنها لابد أن تسير في طريق زوجها، وأن عليها أن تعيش كما يعيش، وأن تحلم كما يحلم.

* * *

واقترب سعيد بن عامر بزهده وتقواه وعدله من شعبه ، فأحبه الناس، ووجدوا فيه الحاكم العادل المضحي الذي يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه..

كان عمر يطمئن بين الحين والحين على علاقة سعيد بأهل ولايته، فكان يبحث بإلحاح عن شيء، قلما يفكر فيه حاكم أو مسؤول الآن..

لم يبحث عن عدد المعارضين في بلده وكيف يواجه المعارضة ويسكتها، لم يبحث عن استقرار حكمه، وهل يطمع أحد في كرسي الحكم..

لقد بحث عن علاقته بشعبه !! هل يحبونه؟! هل يقبلونه ؟!

ولم يستطع أن يخفى عمر بن الخطاب فرحته بعد أن تأكد من أن أواصر المحبة والود ممدودة بين سعيد وشعبه، وعندما قابله ابتسم له في اطمئنان قائلا:

- إن أهل الشام يحبونك يا سعيد.

فأجابه سعيد وهو يهز رأسه موافقا بنفس الاطمئنان:

- لأني أعاونهم وأواسيهم.

إجابة منطقية وبديهية..

سعيد أحب شعبه، فأحبه شعبه وأطاعه وتعاون معه ..

إلا أنه عندما يسود العدل في بلد، يظهر صوت المعارضين مهما كان ضعيفا خافتا..

وعندما يسود العدل في بلد، لابد أن ينظر للشكوى بعين الاحترام، ويستمع إلى الشاكي بعد أن يعطى كل الحرية والأمان.

إلا أن الشكوى كانت غريبة.. فلم تكن تتحدث عن ظلم أو سرقة أواختلاس أوإهمال أواستغلال نفوذ.

كان عمر قلقا كأشد ما يكون القلق وهو يستمع إلى الشكوى..

فلقد كان سعيد اختياره، وهو لم يتعود أن يختار إلا بعد تمحيص وتدقيق.

وأخذ يهمهم بصوت خفيض قائلا:

- اللهم إني أعرفه من خير عبادك..اللهم لا تخيب فيه فراستي.

وأخذ عمر بن الخطاب - رئيس البلاد- يستمع بكل تواضع إلى المتحدث عن مجموعة الشاكين، والذي بدأ في عرض شكواه قائلا:

يا أمير المؤمنين..إننا نشكو من سعيد بن عامر أربعا :

يخرج إلينا حين يتعالى النهار..

ولا يجيب أحدا بليل..

وله في الشهر يومان لا يخرج فيهما إلينا ولا نراه..

وأخرى لا حيلة له فيها ولكنها تضايقنا، وهي أنه تأخذه الغشية بين الحين والحين..

كانت الشكوى تنم عن مدى حرية المواطن في محاسبة حاكمه في القيام بأمور حكمه ورعاية شؤون مواطنيه..

كانت الشكوى تنم عن الكرامة التي يشعر بها المواطن، وهو يتحدث عن حقه في أن يذهب إلى رئيسه في أي وقت من ليل أو نهار..

كانت الشكوى تنم عن وعي المواطن في ظل الحكم العادل، حتى إنه يسأل عن الحالة الصحية لحاكمه.

لكن..

كانت الشكوى تنم أيضا عن تربص خفي لسعيد بن عامر، ومحاولة للبحث عن ثغرة ينفذ منها

الشاكي بسهم شكواه إلى أمير المؤمنين.

وإلا فكيف يلاحظ شخص ما، أن سعيد بن عامر لا يخرج في كل شهر يومين..إلا إذا كان متربصا لسعيد يريد أن يثبت عليه خطأ بأي وسيلة ؟

أعتقد أن عمر بن الخطاب قد قرأ ما وراء الشكوى، وما إن انتهى الشاكى من شكواه، حتى التفت عمر إلى سعيد بن عامر مشيرا إليه بدوره في الدفاع عن نفسه، والذي بدا مطمئنا واثقا وهو يقول:

- **أما قولهم**: إني لا أخرج إليهم حتى يتعالى النهار..فوالله لقد كنت أكره ذكر السبب.. إنه ليس لأهلي خادم، فأنا أعجن عجيني، ثم أدعه يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ للضحى، ثم أخرج إليهم.

..وتهلل وجه عمر وقال: الحمد لله.. والثانية..؟

وتابع سعيد حديثه: **وأما قولهم**: لا أجيب أحدا بليل..فوالله، لقد كنت أكره ذكر السبب.. إني جعلت النهار لهم، والليل لربي..

**أما قولهم**: إن لي يومين في الشهر لا أخرج فيهما...فليس لي خادم يغسل ثوبي، وليس لي ثياب أبدلها، فأنا أغسل ثوبي ثم أنتظر أن يجف بعد حين ..وفي آخر النهار أخرج إليهم.

**وأما قولهم**: إن الغشية تأخذني بين الحين والحين..

فقد شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة، وقد بضعت قريش لحمه، وحملوه على جذعه، وهم يقولون له: أتحب أن محمدا مكانك، وأنت سليم معافى..؟ فيجيبهم قائلا : والله ما أحب أني في أهلي وولدي معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله ﷺ بشوكة..

فكلما ذكرت ذلك المشهد الذي رأيته وأنا يومئذ من المشركين، ثم تذكرت تركي نصرة خبيب يومها، أرتجف خوفا من عذاب الله، ويغشاني الذي يغشاني.

كان التأثر واضحا على وجه سعيد، وهو يبرر لأمير المؤمنين ما جاء في الشكوى المقدمة ضده حتى ظهرت الدموع وهي تبلل شفتيه في نهاية حديثه.

لم يكن سعيد بن عامر متأثرا؛ لأنه حاكم بلد كبير، وهو يقف الآن أمام مرؤسيه يشكونه لأمير المؤمنين..

لم يكن سعيد بن عامر متأثرا؛ لأنه شعر بالتربص به من أناس، طالما ساعدهم وواساهم وضحى من أجلهم..

لقد تأثر سعيد بن عامر؛ لأنه أجبر على أن يقول ما لا يريد قوله..

لم يكن يريد أن يذكر أنه زاهد..حاكم للشام وليس لديه خادم يعجن له عجينه..وليس له ملابس متنوعة وكثيرة، يبدل منها كيفما شاء وقتما شاء.

لم يكن يريد أن يفصح عن عبادة في السر بينه وبين ربه، وهي قيام الليل، جعلته يعتزل الناس في الليل بعد أن أعطى لهم نهاره..

لم يكن يريد أن يذكر للناس موقفه يوم خبيب بن عدي، وشعوره الرهيب بالندم والخوف من عقاب الله لعدم نصرته له، أمام ظلم رهيب لا يتحمله بشر...

سمع عمر بن الخطاب دفاع سعيد بن عامر فاطمأن وابتسم، وعلم أن سعيدا الذي اختاره هو سعيد التقي الزاهد الورع العادل، مازال كما هو، بل زاد قدرا عنده وعند الله.

ولم يتمالك عمر مشاعره من فرحته وهو يصدر الحكم في الشكوى، فقال وهو يصيح:

- الحمد لله الذي لم يخيب فراستي.

نعم يا عمر..ما خابت فراستك..

فلقد كان سعيد نعم الحاكم ونعم الزاهد ونعم التقي الورع..

اطمئن يا عمر..ما خابت فراستك..

ولقد فعل أكثر مما توقعته..

إنه حتى لم يأخذ لنفسه راتبه بالكامل من وظيفته..لقد كان يأخذ منه ما يكفيه ويتصدق بما يفيض عن حاجته على البيوت الفقيرة.. حتى إن بعض أصدقائه دعوه في عجب لكي يتصدق بهذا الفائض على أقاربه وأصهاره قائلين:

- توسع بهذا الفائض على أهلك وأصهارك..

فانزعج سعيد ورد في غضب قائلا:

- ولماذا أهلي وأصهاري..؟

لا والله ما أنا ببائع رضا الله بقرابة.

كانت حساسية سعيد شديدة جدا إلى الدرجة التى لم يرد فيها أن يستغل فيها راتب وظيفة يؤديها على أكمل وجه، في أن يفيد بها أقاربه، فيقال: إنه فضل أقاربه على عامة الناس..

اطمئن يا عمر..ما خابت فراستك.

ويعود له أصدقاؤه ويقولون له في تعجب وإشفاق:

- توسع على أهل بيتك في النفقة، وخذ من طيبات الحياة.

فينظر إليهم في ابتسام وثقة، وكأنه يحلق في السماء قائلا:

- ما أنا بالمتخلف عن الرعيل الأول، بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« يجمع الله عز وجل الناس للحساب، فيجيء فقراء المؤمنين يزفون كما تزف الحمام، فيقال لهم: قفوا للحساب، فيقولون: ما كان لنا شيء نحاسب عليه.. فيقول الله: صدق عبادي.. فيدخلون الجنة

قبل الناس».

اطمئن يا عمر..ما خابت فراستك.

كان سعيد بن عامر يعيش على الأرض ويحلق في السماء، ينظر إليها بين الحين والحين، فيرى أصحابه في نعيم لا أول له ولا آخر مع رسول الله ﷺ، فيزهد الدنيا ويتشوق إلى لقاء الله ولقائهم..

ولقد لبى الله نداء سعيد سريعا.. وسريعا جدا..

فلقد أحب الله لقاء سعيد بن عامر وهو في سن الأربعين، عام عشرين من الهجرة..

ولقد اشتاق إليه أصحابه كما اشتاق إليهم..

كفاك زهدا يا سعيد.. واستعد..

فلقد بدأ وقت النعيم والراحة والترف..

إلى الأبد.

* * *

# دروس وتحليل

**١- رؤية الظلم لابد أن تدعو للتفكير ومراجعة النفس وتغيير المواقف ( سعيد بن عامر يتأثر بمشهد إعدام خبيب، فيصيبه بالأرق المتواصل، ويتسبب في مرضه بالصرع الخفيف ) .**

أحيانا يبلغ اليأس ببعض المجتمعات التى تفتقر إلى الحرية -كالمجتمعات العربية- إلى أن تنظر للظلم على أنه شيء عادي، أوأنه قد أصبح شيئا عاديا، فمن كثرة مشاهد الظلم المتكررة كل يوم، يصبح المشهد عاديا مفرغا من التأمل، وعلى المسلم مهما كان يعاني من فقدان الحرية في مجتمعه ألا يفقد الإحساس بمرارة الظلم عند رؤيته، والتفكير في الدوافع والأسباب التى أدت إليه، ثم إسقاط ذلك على حياته، فيبدأ في مراجعة حياته وأفكاره، فربما يكون مشهد واحد مما نراه على شاشات التلفاز يوميا قادرا على تغيير حياتنا من النقيض إلى النقيض. إن رؤية الظلم دفعت سعيد بن عامر إلى أن يغير حياته كلها ويسلم، ورؤية مئات المشاهد التي تعج بالمظلومين كل يوم،كفيلة بأن تدفعنا لأن ننظر لأنفسنا مرة أخرى، فنراجعها ونغير مسارها.

**٢- كل إنسان لابد أن يظلم في حياته حتما، فاحرص أن تعلم غيرك شيئا ( خبيب بن عدي يبعث رسائل الصمود وحب الرسول ﷺ والرغبة في التضحية والفداء من أجل العقيدة، وهو على منصة الإعدام ) .**

لا يمكن أن تمر حياة إنسان مهما كان، وفي أي مرحلة من مراحل العمر، دون أن يقع عليه ظلم ما، ومن الممكن أن ينال الإنسان ثوابا عظيما، إذا ما حرص على أن يعطى لغيره قيمة نبيلة وهو مظلوم، مثلا.. قيمة الثبات على المبدأ، أوالصبر دون جزع، أوالإصرار على النجاح والمحاولة مرات ومرات، أو التسامح عند المقدرة.

إن المظلوم الذي يحاول أن يعلم الناس شيئا، يتحول إلى رمز وبطل وقدوة جديرة بأن يحتذى بها.

**٣- الثبات على المبدأ يجعلك شخصا جديرا بالاحترام أمام نفسك وأمام أصدقائك وأمام أولادك ( أبو سفيان يجد نفسه مضطرا لاحترام خبيب رغم ضعف موقفه، نظرا لثباته على الحق ودفاعه عن مبادئه بمنتهى القوة والشجاعة ) .**

الحياة عبارة عن سلسلة من الصراعات بين الخير والشر، والضغوط التى يتعرض لها أي إنسان مهما كان صغيرا أو كبيرا، سواء كان طالبا في مدرسته أو موظفا في عمله، أو مسؤولا في منصب كبير أو صغير، فهذه الصراعات والضغوط لا تنتهى أبدا، ودائما يقف الإنسان بين أن يصر على مبدأ يعلم تماما أنه صحيح ويدافع عن قيمة نبيلة، وبين أن يستسلم للضغوط التي من الممكن أن تكون رهيبة في بعض الأحيان.

وخبيب يعلمنا أن الثبات على المبدأ يجعلك شخصا جديرا بالاحترام، حتى وإن خسرت بعض

الشيء، فأبو سفيان رغم أنه سيقتله، إلا أنه لم يستطع أن يتمالك مشاعره أمام صموده على مبدئه، رغم ما يتعرض له من ضغوط. وفي المقابل.. من السهل أن يقنع الإنسان نفسه بالاستسلام للضغوط في مقابل المصلحة، ولكنه في النهاية.. من الصعب أن يحترم نفسه.. فضلا عن احترام الناس.

**٤- الإيمان له قوة رهيبة، والظالم مهما تجبر، لا ترعبه قوة مثل قوة الإيمان ( الجمهور الواقف ليشاهد إعدام خبيب، يخفض رأسه خوفا من أن يصيبهم دعاءه بسوء، رغم عدم إسلامهم ).**

إما أن تكون متدينا، وإما أن ترى متدينين وتتعامل معهم، وفي الحالتين لابد أن تشعر بأن المتدين يشعر بدرجة من الثقة والشجاعة في مواجهة المواقف، وعندما يتعامل معه أحد، لابد أن يضع في الحسبان أنه متدين، يعنى أن الحسابات تختلف قليلا مع الشخص المتدين، لماذا ؟.. لأن الإيمان له هيبة ووقار واحترام، وقوة تستمد – إن كان الإيمان صادقا – من الله عز وجل؛ لذلك فإن الظالمين يعلمون دائما، أن أكبر طائفة قادرة على الصمود؛ هي طائفة المتدينين المتسلحين بالإيمان، هذه الهيبة تشعر الظالم دائما أنه صغير حتى وهو يظلمك.

**٥- الإسلام لا يعطى المناصب لذوي الجاه والمال، وإنما يعطيها لذوي الكفاءة ( عمر بن الخطاب يختار سعيد بن عامر واليا على إحدى ولايات الشام رغم فقره وبساطته ).**

اختار عمر بن الخطاب سعيد بن عامر الشاب الفقير البسيط لحكم إحدى ولايات الشام، رغم صعوبة المهمة وخطورتها، وطبيعى لدولة ناجحة كدولة الإسلام ورجل ناجح كعمر بن الخطاب، أن يختار الكفاءة التى وجدها في سعيد. هذه السمة الأصيلة في الإدارة، هى التى جعلت إمبراطورية الإسلام قوية لفترة طويلة من الزمن، وعكسها تماما هى التى أزاحت الدول الإسلامية والعربية عن المقدمة لصالح أوروبا وأمريكا، بعد أن أصبح معيار الكفاءة يأتي متأخرا في الاختيار، ويسبقه معيار الوساطة والشكل الاجتماعي والوجاهة والطاعة العمياء.

**٦- المجتمع الناجح هوالذي يبحث عن المواهب، والمجتمع الفاشل هوالذي يجعل الموهبة تبحث عنه متذللة لترعاه ( عمر بن الخطاب يلاحظ مواهب سعيد بن عامر وقدراته ويوظفها، رغم هدوئه وبساطته ).**

تتميز مجتمعاتنا العربية بعدم البحث عن المواهب، وعندما تظهر لها موهبة تبدأ في محاربتها بطريقة آلية مدربة!! بدءا من سخرية الأصدقاء والآباء، ونهاية بوضع العراقيل من قبل المؤسسات الحكومية، إلى الدرجة التى تصيب الموهوب بالإحباط الشديد، وبالتالي يصبح الشخص العادي أفضل حالا من الشخص الموهوب، في الوقت الذي نجد فيه دولة كأمريكا قامت أصلا على التقاط الموهوبين من كل مكان في العالم ورعايتهم حق رعاية، فهاجرت عقولنا للخارج، ونفعت غيرنا، وظللنا نحن نهلل أن هؤلاء الناس من بلادنا.

إن عمر بن الخطاب ضرب لنا مثلا في البحث عن موهبة في القيادة لم ينتبه إليها الكثيرون، ربما

نظرا لهدوء سعيد بن عامر وبساطته، وكان طبيعيا أن ينجح عمر بن الخطاب في إدارته للبلاد، لسياسته الدؤوبة في انتقاء المواهب والكفاءات وتوظيفها.

**٧- الحلم بالجنة يعصم الإنسان من الفتنة ( أمنية سعيد الدائمة بالجنة، تحميه من استغلال سلطته في البحث عن الثراء، وتحصنه من فتنة المال ).**

كان سعيد بن عامر يمنى نفسه بالجنة دائما كلما دار حوار بينه وبين زوجته عن المال والتجارة، وهو منهج غاية في الأهمية لنا في هذا العصر، حيث كثرت الفتن وحاصرتنا من كل اتجاه، ولا سبيل لمقاومتها إلا بالتعلق بالجنة، والطلب من الله أن يحقق أحلامنا ورغباتنا فيها بعد الصبر على مفارقتها في الدنيا.

إن فلسفة الإسلام قائمة على مبدأ الترغيب والترهيب، وفي وقتنا هذا نحن نحتاج أن نرغب أنفسنا كثيرا بنعيم الجنة، ونشدد على أنفسنا أن نصبر من أجلها.

**٨- حب الناس مصدره كثرة العطاء لهم، والزهد فيما يريدونه (سعيد بن عامر يجتهد بصدق في خدمة الناس).**

أحب أهل الشام « سعيد بن عامر» حبا كبيرا؛ لأنه لم يعش لنفسه، بل عاش يعطيهم رغم فقره وحاجته ، فلم يشعروا يوما أنه أخذ المنصب ليتعالى عليهم ويستفيد منه، بل استغل المنصب في خدمتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إن أكثر ما ينشر الحب بين البشر العطاء، وأكثر ما ينشر الحقد والكراهية الأخذ؛ لذلك حث الإسلام على معاني الإيثار، لينشر الحب في المجتمع، ويقوي العلاقات بين الناس، ويدفع للتعاون والتقدم.

**٩- العطاء للفقير والغني ( سعيد بن عامر يكرم الناس رغم فقره ).**

العطاء ليس حكرا على الأغنياء فقط، والكرم ليس شرطا أن يكون من نصيب الموسرين فحسب، فالرسول ﷺ كان فقيرا ولكنه كان أجود الناس، المهم أن تعطي ولو قليلا، والعطاء ليس عطاء المال فقط، بل عطاء المشاعر أيضا.

**١٠- الإسلام أعطى الحرية الكاملة لمواطنيه في انتقاد الحاكم ( بعض من أهل الشام يتقدمون بشكوى إلى عمر بن الخطاب ضد حاكمهم سعيد بن عامر ).**

الحرية التى رأيناها في قصة سعيد بن عامر مذهلة، فلقد أعطت الناس حقهم الكامل في انتقاد الحاكم وأمام أمير المؤمنين دون اضطهاد أو ضغط أو لوم، وكل ما تمناه عمر بن الخطاب أن يكون سعيد بريئا- وهذا حقه - وهو عكس ما يقال تماما عن الإسلام، من أنه يضيق الحريات ويكبت الناس ويكمم الأفواه، فالإسلام ليس مسؤولا عن أشخاص أساؤوا فهمه، فأساؤوا إليه وأساؤوا للمسلمين وأساؤوا لأنفسهم.

**١١- العلاقة قوية بين العدل وعبادة السر ( سعيد بن عامر يحافظ يوميا على قيام الليل ).**

فرق كبير بين أن يصلى المسلم أمام الناس، وبين أن يصلى في جوف الليل لا يعلم صلاته إلا الله، فالصلاة أمام الناس قد تتعدد فيها الاحتمالات، أما الصلاة في جوف الليل فليس لها إلا احتمال واحد، هو حب الله وطلب رضاه، ولا يمكن لحاكم أن يحب الله ويريد رضاه إلا إذا كان حريصا على إقامة العدل بين الناس.

إن العلاقة قوية بين قيام الليل وإقامة العدل، وليس إقامة العدل، فحسب؛ ولكنه مدرسة لها تأثيرها الكبير على سلوكيات المسلم اليومية أيضا.

**١٢- عدم نصرة المظلوم كفيل بأن يصيب الإنسان بالندم طوال حياته ( سعيد بن عامر يعاني من الصرع الخفيف طوال حياته، من جراء ما رآه في مشهد إعدام خبيب ).**

أصيب سعيد بن عامر بصرع خفيف، وعاش طول حياته نادما؛ لأنه لم ينصر خبيبا ويدافع عنه ولو بالكلام.

بالتأكيد.. كل واحد منا تعرض لظلم ما في حياته، ويعرف تماما الإحساس الذي يصيبه وهو يرى من حوله يعلمون تماما أنه مظلوم، ولكنهم صامتون لا يستطيع واحد منهم أن يقول كلمة حق.. إنه شعور شديد بالمرارة.

إن الإسلام لا يريد للمسلم أن يكون ضعيف الشخصية، فيسكت عن قول كلمة ينصر بها مظلوما، أو يتخذ إجراء يرد به ظالما.

* * *